الأدب فى خدمة المجتمع

مثال من الأدب الأمريكى

للاستاذ س . م

" إن الأمريكيين يكرهون الانغماس فى القراءة كما يكرهون الانغماس فى أى شىء آخر"

وهذا كلام حسن جدير بنا أن نستمع اليه . لأنه يجب أن تكون لكل قارئ غاية تمثل فى برنامج لندراسة والنمو والرقى . وكذلك يجب أن ندرك أن الثقافة ليست زينة وزخرفا . وإنما هى جهاد وكفاح يقوم بهما الفرد لكى يرفع نفسه من البيئة الاقليمية والنظر القروى إلى البيئة العالمية والنظر البشرى ، أو يخرج بها من ضيق التخصص الذى تقتضيه الحرفة أو الفن الخاص إلى سعة التعميم الذى يشعرنا بالاندماج فى نشاط وجهد عالميين فتكبر بذلك شخصيتنا وتتسع آفاقنا .

فالأمريكيون يكرهون القارئ الذى يلهو بالقراءة ويجعل هذا اللهو يستغرق معظم وقته ، كما يكرهون القراءة جزافا للتسلية أو لقتل الوقت ، وهم أكثر الأمم تقديرا وتكبيرا لقيمة الوقت ، والأدب والثقافة عندهم يجب أن يكونا فى خدمة المجتمع ، وذلك الأديب الذى يعيش فى " البرج العاجى " هو أبعد الأخيلة عن أذهانهم ، كما أن تلك الحركات التى شاعت فى أوروبا فى وقت ما مثل " الفن للفن " أو أن الفن أو الأدب يجب ألا تكون له غاية اجتماعية — هذه الحركات لم تعرفها أمريكا ، فالأدب عند الأدباء الأمريكيين يتفاعل مع المجتمع ، وهو ليس أدب الفراغ ، وإنما هو أدب الكفاح ، وهو أبعد ما يكون من المخدرات الذهنية .

والواقع أن السنين العشرين الماضية قد جعلت الحركات الأدبية السابقة بشأن مهمة الأدب سواء فى أوربا أو أمريكا لغوا لا قيمة له . فإن الأديب العصرى قد ألفى نفسه فى عاصفة من القلق الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الذى انتهى بما يعانيه العالم فى الوقت الحاضر من كوارث قد لا نكون قد عبرنا سوى القليل منها . ولا يزال الباقى فى طى المستقبل القريب . ووجد نفسه لهذا السبب مكلفا بأن يكون فى معسكر التطور الجديد يدعو للسلام والعدالة الاقتصادية والإخاء البشرى .

وذلك الأديب الذى يقول فى عصرنا بأن الأدب ليس له شأن بالرقى الاجتماعى إنما هو أديب عبث يعمل فى خوء أوفى يسميه "البرج العاجى" : والعالم فى كوارثه المدلهمة وغى

وعند ما نتحدث عن الأدب أو الثقافة الأمريكية يجب ألا نهمل الصحافة — جرائد ومجلات — من اعتبارنا ، لأنها فى أمريكا من أعظم وسائل الثقافة . وقد حدثت حادثة قبل سنوات دلت على مقدار ما تقوم به الجرائد اليومية من الخدمة الثقافية للجمهور ، فإن أحد الناقدين ذكر إحدى الجرائد بأنها قد أفسحت صفحاتها للإعلانات فاقتضبت بذلك المكان الخاص بالمقالات الثقافية والأدبية والعلمية. فردّت عليه هذه الجريدة رداً عملياً بأن عمدت إلى عدد من أعدادها التى تناولها النقد وجمعت ما فيه من آداب وعلوم وأخرجتها مجلداً . فخرج كتاباً حاوياً للفنون والآداب والقصص والبحوث الاجتماعية والعلمية .

هذا عدد واحد من جريدة يومية ، ولم يكن مختاراً ولا مهيئاً ، بل هو العدد أو أحد الأعداد التى تناولها نقد الكاتب . وجميع الجرائد الأمريكية تسير على هذا الغرار من العناية بالثقافة العامة . وقد نظن أن هذا يؤثر فى تأليف الكتب ويؤخرها بالمزاحمة ؛ ولكن الواقع الذى أثبته الاختبار أن المزاحمة فى الثقافة تزيد الاستهلاك ولا تنقصه .

وقد نبتت جذور الأدب الأمريكى فى أوربا أو فى بريطانيا خاصة. والآداب الانجليزية هى لهذا السبب تراث يتغذى به الذهن الأمريكى. ولكن الأدب الأمريكى عاش منفصلا نحو ٣٠٠ سنة كان فى بدايتها ضعيفا ضئيلا ثم قوى بعد الاستقلال وعاش مدة القرن التاسع عشر وهو ينظر الى الأدب الانجليزى نظرة الأخ القاصر يحاول التملص من أخيه الأكبر الراشد ، حتى إذا كان هذا القرن العشرين رأينا الاستقلال تاما وأمارات الشباب والقوة بادية بل بارزة .

ومع ذلك يجب ألا ننسى أن الأدب الأمريكى حتى حين بدايته ضعيفا فى تلك القرى الصغيرة الناشئة بهجرة الأوربيين اليها كان ينزع نزعات خاصة عليها طابع البيئة ومزاج المهاجرين. فإن هؤلاء تركوا أوربا وهى مفتتة بالحروب السياسية والدينية ، فكان أول همهم أن يجعلوا التسامح المذهبى عاما بل قاعدة لحياتهم الجديدة . ثم هم وجدوا أرضا بكرا ولكنها كانت تتحداهم فى غاباتها ووعورة جبالها وأنهارها ووحشية سكانها الأصليين ، فتكون لهم هذه الظروف مزاج جديد هو التفاؤل والكفاح معا .

وأنشئت أول مطبعة فى الولايات المتحدة سنة ١٦٤٠ فكان على مؤلفاتها هذا الطابع وهذه الطوابع : التسامح والتفاؤل والاقتحام . وهذه الصفحات لا تزال الميزات الغالبة للأدب الأمريكى حتى يومنا .

ولكن الكفاح للطبيعة بل الكفاح للأمرنديين — سكان أمريكا الأصليين — كان يستغرق كل جهد وكان المهاجرون فى شغل عن الثقافة ببناء بيت أو إنشاء عزبة أو مقاتلة عصابة. ولكن التنبه السياسى الذى عم السكان فى جهادهم للاستقلال منذ سنة ١٧٧٠ جعل

الأفكار تغلى بالنظريات عن الحكومة والمجتمع والديمقراطية ، فاصطدمت الآراء وعبئت الأذهان للدفاع عن قضية الاستقلال. والعادة أننا حين ندافع عن قضية عادلة نجد أننا نحن ننتفع بهذا الدفاع بمثل ما تنتفع بنا هذه القضية ، لأننا ندرس المبادئ ونعين العناصر ونبين وجوه الحق من جوانب الطغيان . ولذلك يزداد التحرك الثقافى فى أوقات النهضات. وتبدأ النهضة إقليمية فتنتهى بقوة هذا التحرك الى أن تكون نهضة إنسانية ، وهذا ما نجده فى حركة الاستقلال الأمريكية سنة ١٧٧٦ ، فانه يبرز لنا كاتبان أحدهما توماس بين الذى يدعو الى الديمقراطية والحرية والجمهورية ، والآخر بنيامين فرانكلين الذى يمكن أن نصفه بأنه أول أمريكى له الميزات الأمريكية ، فانه كان عاملا فى مطبعة ، ثم صحفيا ، ثم مؤلفا ، ثم سياسيا يشترك فى صوغ "اعلان الاستقلال" للأمة الأمريكية وفى أثناء ذلك يقوم بتجارب علمية مثمرة، وبتأليف كتب فى الأدب منها ترجمته التى لا تزال تقرأ بلذة وفائدة الى اليوم .

ألسنا نرى فى هذه الحياة شبها من اديسون أو فورد ؟ ذلك الطراز من الرجل الأمريكى الذى ينشأ عاملا فقيرا يمارس أحط الحرف ، ثم يجد ذكاؤه فى مرتع الحرية والمساواة والإخاء الذى يعيش فيه مايخصبه وينميه فيزكو و يزدهر حتى يصير قائدا من قادة الأمة فى السياسة والعلم والاختراع ؟

وفيما بين سنة ١٨٠٠ و ١٨٥٠ أى النصف الأول من القرن التاسع عشر لانكاد نجد أديبا يقرءه . ولكن الأفكار كانت تختمر لانقلاب جديد ، ففى سنة ١٨٥٢ نجد كتابا تخرجه السيدة هاريت بيتشرستو باسم "كوخ العم توم" فيثير عاصفة فى أنحاء الولايات المتحدة لأنه يصف مايكابده العبيد السود من القسوة والفظاظة واستبداد سادتهم ، و يكون هذا الكتاب من الأسباب المعجلة للحرب الأهلية بعد نحو عشر سنوات لتحرير الزنوج ، فهنا نرى كتابا فى الأدب أى قصة شعبية قد أدت إلى حركة اجتماعية بارزة . كما رأينا من قبل كتابا لتوماس بين الذى ذكرت هنا بعنوان "التعقل" يؤدى سنة ١٧٧٦ إلى تحريك الشعب إلى الثورة وطلب الاستقلال كما اعترف بذلك واشنطون نفسه زعيم الاستقلال .

فنحن إزاء حركتين بارزتين فى تاريخ الولايات المتحدة كان للكتاب أكبر الأثر فى إيجادهما، هما حركة الاستقلال سنة ١٧٧٦ وحركة التحرير سنة ١٨٦٠، وهذا هو ما نقصد بأن الأدب الأمريكى كان على الدوام يتفاعل مع المجتمع ويخدم رقيه ونموه .

وفيما بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠ نجد كوكبة من الكتاب الذين لا تزال مؤلفاتهم تعد مصابيح للعصر الحاضر ، وأشهرهم بالطبع هو أمير سون الذى يقرأ فى انجلترا كما يقرأ فى الولايات المتحدة ، والواقع أن هذا الكاتب الذى أحال المقالة قطعة فنية لا تقل — بل ربما تزيد —

فى قيمتها على القصة قد عاش فى أمريكا بين مجتمع أمريكى . ولكن جوه الذهنى كان انجليزيا ، وكثيرا مانحس ونحن نقرأه أنه ينزع إلى كارليل ، وهو وإن لم يعرف هوس كارليل فى عبادة الأبطال مثلا فانه قد اقترب منه فى كتابه " الممثلين " أى الذين يمثلون فكرة بشرية وهم عنده أفلاطون ، وسودينبورج ، ومونتانى ، وشكسبير ، ونابليون ، وجيته ، وهو بهذا الاختيار يدل على أنه كان بعيدا عن الروح الامريكى الديمقراطى قريبا من الروح الأوربى الذى يكبر الزعيم .

ونجد كاتبا آخر توفى سنة ١٨٦٢ يدعى ثورو ، وهو تولستوى أمريكا . ترك المدينة وعاش فى الغابة يقتنع بالأعشاب والقليل من الأجر الذى يحصل عليه بعمله اليدوى فى المزارع المجاورة لكى يشترى الملابس أو سائر الضرورات . وهو يدعو الدعوة الحارة إلى الاقبال على الطبيعة والكف عن اقتناء الزخارف المدنية التى تقيد حريتنا بدلا من أن توسعها. وليس شك فى أن الحضارة الامريكية كانت فى وقته تحتاج — بل هى تحتاج الآن أكثر مما كانت فى عصره — إلى مثل هذه الدعوة ، لأننا ونحن نتأمل الكفاح الاقتصادى وبجيل النجاح السائد للمجتمع الأمريكى ووفرة الآلات وتكاليفها لا نتمالك من أن نتساءل : هل الحضارة الأمريكية فى خدمة الأمريكيين أم هم الأمريكيون الذين يخدمون الحضارة ؟ وهنا نذكر كلمة هوثورن أحد كتابهم : لقد أصبح الناس آلات آلاتهم .

وشبيه بثورو كاتب آخر يدعى والت هويتمان . فانه ينزع نزعته ويؤلف كتابا بعنوان " أوراق العشب " ويحذر الامريكيين من المادة ويسك عبارة " العصيان المدنى " التى أخذها عنه غاندى. وهو كبير الآمال فى الديمقراطية الأمريكية التى يعتقد أنها ستسمو وتتحرر من التقاليد والقواعد الموروثة وتخط لنفسها منهجا جديدا فى الحياة تتكون منه الشخصية الإنسانية العالية .

ولكن هؤلاء الأدباء الذين ذكرنا ليست لهم تلك الشهرة العالمية التى لعظماء المؤلفين . فإنهم — باستثناء امرسون — كانوا يعيشون فى جو أمريكى محض . على أننا نجد فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أديبا أمريكيا أوربى النزعة يكتب ويسير بالسفارة الثقافية بين القارتين هو هنرى جيمس. وكان يعنى كثيرا بإيضاح الفرق بين حضارة أوربا العجوز وحضارة أمريكا الناهضة ، وكيف يؤثر هذا الفرق فى تكوين الشخصية . ومع أن هنرى جيمس قضى معظم حياته فى انجلترا حيث مات سنة ١٩١٦ فإنه بقى فى لبابه أمريكيا صريحا ، وهو شقيق وليم جيمس زعيم الفلسفة والسيكلوجية فى الولايات المتحدة . وقد صاغ هذان الشقيقان القالب الثقافى الجديد فى أمريكا .

ووحدة اللغة والتقاليد وتراث الثقافة بين انجلترا والولايات المتحدة كل هذه تجعل الأديب الأمريكى ينزع إلى انجلترا ويؤثر خصوبتها التى كسبتها بتاريخها على مدى الأجيال

ويقربها — روحيا وماديا — من أوربا . ولذلك نجد أن أميرسون يكتب فى أمريكا وهو يحس أن جذوره فى انجلترا . ورأينا هنرى جيمس يعيش فى قرية قريبة من لندن . ونرى فى عصرنا الشاعر الأمريكى ت. س. اليوت يعيش فى لندن . وينقل الدعوة البشرية الأمريكية اليها .

وفى الولايات المتحدة الآن ثلاثة من نجوم الأدب هم درايزر . وسنكلير لويس. وابتون سنكلير . وثلاثتهم منغمسون فى المجتمع ، كفاحهم الثقافى هو فى الواقع كفاح اجتماعى . وآخرهم — ابتون سنكلير — هو داعية سافر للاشتراكية تغلب الدعاية فيه على الفن . وهو يرى أن الأدب لايزيد على أن يكون دعاية . وهذا يدل على رغبته الحارة فى تغيير المجتمع . أما الاثنان الآخران فعنايتهما بالفن كبيرة ومؤلفاتهما أقرب إلى التراجم الشخصية والسير منها إلى القصص ، وهما يعيبان على المجتمع الأمريكى سطحيته فى الثقافة وتعلقه بالبهارج فى الحضارة .

ونستطيع أن نذكر كثيرين من الأدباء الأمريكيين ، ولكن ماقلنا فى أول هذا المقال وهو أن الأديب الأمريكى لايعرف البرج العاجى ينطبق عليهم جميعا لأنهم يرون أن الفن ليس له غاية أخرى سوى خدمة المجتمع ، وقد تكون هذه الخدمة باظهار عيوبه وبعثه على التغير وهذه هى العبرة التى قصدنا اليها .

س . م